إبراهيم ونوس

المثقفون العرب

ودورهم التاريخي في المرحلة الراهنة



1994

في سبيل مجتمع عربي موحّد حُرّ و ديمقراطي



المثقفون العرب

ودورهم التاريخي في المرحلة الراهنة

إبراهيم ونوس

البحث في الثقافة العربية ، ودور المثقفين العرب النخبويين في هذه المرحلة من حياة امتنا العربية مهمة صعبة . بل ربما كانت من اصعب المهمات الفكرية على الاطلاق ، في زمن كادت الثقافة العربية الأصيلة تتحجم فيه . والمثقفون العرب النخبويون يصمتون على آلام الجراح النازفة . وهم يرون امام اعينهم هذه السيول الجارفة من الثقافات القطرية التي يطلقها مدعو الثقافة ، ويتحدثون فيها عن كل شيء ماعدا الثقافة العربية الاصيلة ...

هذا الجانب الهام من حياتنا الفكرية القومية ؛ لم يأخذ أبعاده الفاعلة على مستوى الثقافة العربية ، ومستوى المصير العربي لأسباب عديدة . يعرفها المثقفون العرب النخبويون وحدهم داخل الوطن العربي وخارجه ، ويدركون أبعادها إدراكاً موضوعياً شاملا ؛ ويدركون ما وصلت اليها ، ولا يعرف الداء غير النطاسي البارع . وهو الذي يحدد الدواء الشافي . والمسألة تتعلق في أن يقبل ذوو المريض ، وهم هنا « القطرية » بأن يتعاطى المريض ، وهو « المجتمع العربي » الدواء كي يتعافى . .

والجواب على هذه المسألة . وأمثالها مما يخطر على أذهان المثقفين العرب ؛ يحدد مسار الخطوات الحثيثة للثقافة العربية القومية . ويحدد دورهم النخبوي في المشروع الثقافي العربي النهضوي الشامل ، وفي اطر الأوضاع العربية الراهنة التي تبدو وكأنها عصية على الحل العربي ، وغير قابلة للتبديل في المستقبل القريب . . .

في ظروف حياتنا العربية المعاصرة . القومية ، والسياسية ـ والاجتماعية، والثقافة العربية تميل أكثر، فأكثر نحو الاتجاهات القطرية، وتتوجه للمحافظة على أطرها الخاصة، وتتوالى في انحدارها، وانحسارها التدريجي القومي . فإن البحث في الثقافة العربية ، ومواقعها في الذهنية الفردية ، والجماعية لدى الجماهير العربية ، تتطلب جهداً مضاعفاً ، لأسباب كثيرة ، ابرزها ، واهمها . أن الثقافات القطرية المعاصرة ، وامتداداتها ، وتأثيراتها ، لا تهدد الثقافة العربية القومية فحسب ، بل تهدد المصير العربي كله ، كأمة ، وحضارة ، وقيم حدودية انسانية . وتدفع المثقفين العرب النخبويين نحو الانهيار الذاتي . بأن يصبحوا كالجنود الذين فقدوا معنوياتهم في المعركة الحربية ، يضربون بسيوفهم خبط عشواء ، كل من يصادفونه امامهم ، لا فرق بين عدو ، وصديق ذلك لأن الضيق النفسي الذي لا يجد متنفساً له ، يؤدي بصاحبه الى التوتر الداخلي الحاد ، والارهاق الذهني ، وهذا سوف يؤدي بالمثقفين العرب النخبويين الى اليأس ، واليأس اول معالم الانهيار الشخصي . وآخر المطاف الذي يصل اليه المثقفون ؛ لأنهم يعيشون مرغمين في وطن

مجزأ ، تعـددت امراضـه الاجتماعية ، وتنـوعت ، وانتهكت حريات إنسانه الأساسية . وضـاع فيه صالح الثقافة بطالحها ، حابلها ، بنابلها وطن تعددت انظمته ، واحتلت اجزاء منه ، وتباعدت اهواء قادته ، الى درجة ترعش صدر كل انسان عربي خوفاً على المصير العربي كله .. الارض ، والانسـان ، والثقافة ، والحضارة ..

فيما اعتقد . وعلى الرغم من هذه المعيقات المحزنة جداً ، أن المثقفين العرب النخبويين وحدهم الذين يستطيعون تجاوز هذه المصاعب . ويتحدون اندفاعاتهم ، وهيمنة الذين يدعون الثقافة الأصيلة في الوجود العربي . وبهدف تحقيق مهماتهم القومية الأولى « الوحدة » . المثقفون النخبويون العرب الذين يملكون نفوساً كبيرة ، وطاقات ابداعية قومية غير محدودة . هم القادرون مع امثالهم من المؤمنين بالأمة العربيــة ، ورسالتها الحضارية الانسانية ، على تحدي أمواج الثقافات القطرية العاتية . هم الذين عناهم ابو الطيب في قوله :

وإذا كانـت النفوس كبــاراً تعبت في مرادها الاجسام(١)

لقد كان المثقفون الأصلاء . من أصحاب النفوس الكبيرة ، والعقول الصافية ، المنفتحة على الوجود ، أسياد التاريخ الانساني والعربي على امتداد القرون ، فالتاريخ القومي لكل امة يخطه المثقفون فيها . لانهم على مختلف اختصاصاتهم العلمية نجباء كل امة ، وسادة العقل فيها . فتاريخ اليونان كتبه سقراط عندما رفض التنازل عن أفكاره المثالية ، وفضل الموت على ذلك . وسعيد بن جبير يطغى اسمه في تاريخ النهضة العربي على اسم قاتله الحجاج بن يوسف الثقفي . الأول يمجد ، والثاني يُلعن . وابن المقفع يطغى بثقافته ، ومواقفه المثالية على قتلته من الخلفاء العباسيين . وابن رشد في عيون العرب والعالم اعظم بكثير من مضطهده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الرابع من خلفاء الموحدين . وابن الهيثم أعلى كعباً في التاريخ من الحاكم بأمر الله الفاطمي . وعبد الرحمن الكواكبي اجل من كل الخلفاء العثمانيين . وكمال ناصر ، وحسين مروة ، وصبحي الصالح ، وناجي العلي . هم اعظم اعتباراً في نظر العرب من كل حملة

البنادق ، والمدافع ، والصواريخ العرب . والذين يوجهونها نحو صدور العرب ، وليس نحو اعدائهم ..

هذا هو دور المثقفين الأصلاء على مدى التاريخ الانساني . لم يتغير ولن يتغير ، العقلاء اسياد التاريخ . لأنهم اسياد الكلمة ، واسياد المواقف المبدئية الانسانية . وعلى هذه الاسس الراسخة من المنطقية ، يجب ان ينظر المثقفون العرب النخبويون الى انفسهم في عصرنا ، بأنهم سادة التاريخ المعاصر ، وسادته في المستقبل في نظر الاجيال العربية القادمة . لانهم سادة الفكر ، والرؤية ، والكلمة ، والموقف . لأن ثقافتهم هي التي تخلد الأمة ، وهي التي ترسم معالم الحضارة ، وهم الذين يجب أن تقام لهم النصب التذكارية في كل مكان من البلاد ..

اما اشباه المثقفين الذين عبروا في تاريخ الأمة العربية منذ تكونها حتى هذا العصر وكانوا سدنة الحكام ، والولاة . يمجدون سادتهم ، واصنامهم الانسانية . فهم الذين شوهوا فكر الامة العربية ، وثقافتها على امتداد تاريخها . وهم الذين يشوهون فكرها في هذا العصر . يلوثون شخصيتها القومية ، والانسانية . وهكذا سوف يكونون في المستقبل ، مخلوقات انسانية متموجة . يترجرجون عند كل هبة ريح ، كما تترجرج صفحات الماء الراكدة . هم زبد ، ذرات غبار ، والزبد يذهب جفاء ، وذرات الغبار تقذفها رياح التاريخ العربي فوق وهاد الوطن العربي .

امة عريقة كالامة العربية لها شخصية تاريخية ثقافية متاصلة الجذور ، وطموح مستقبلي كبير ، تضيع. ندعها مهددة في ثقافتها، وامنها الثقافي بأعداء من داخلها،وخارجها،واشرس اعدائها أولئك الذين يدعون الانتماء اليها ، ويقبعون بين ظهرانيها . ويشنون عليها ، وعلى ثقافتها الحروب المعلنة ، وغير المعلنة بلا هوادة . يحاولون تدمير ماضيها الثقافي والعبث بحاضرها . وتحويل مستقبلها عن مساره الطبيعي « الوحدة » . يثقلونها بالأعباء الفكرية التغريبية المرهقة ، يحاولون ان يخرجوها من اطار الحضارة الانسانية المعاصرة . وان يبقوها مجزاة ، لان استمرار تجزئتها وترسيخ القطرية السياسية ، والثقافية فيها هدف محدد تعمل له الأطراف المعادية لها في داخلها ، وخارجها .. يريدون تعطيل

فاعلياتها الثقافية ذات الطابع القومي ، وبذا يعطلون دورها الوحدوي . وكل ما من شانه ان يبعث حضارتها ، وخصائصها الانسانية الى الوجود العالمي ...

المثقفون العرب النخبويون وحدهم في هذه المرحلة الذين يمكنهم أن يحولوا الثقافة الى اداة وحدوية فاعلة . وبها يستطيعون الخروج من الواقع الحالي ، هم الذين يمكنهم أن يتجاوزوا الزمن ، وينتصروا عليه .

الثقافة : رؤية وتعريف وفاعلية :

الثقافة تعني عند العرب القدماء : الفطنة والذكاء ، وحدة الحافظة وتجميع المعارف العامة في كيان الشخصية الانسانية . والقدرة على طرحها عند مناسبتها ، ولزومها . وهي ايضا توخي القيم الأخلاقية ، والسلوكية الانسانية المثالية ، وتتجسد في معرفة علوم اللغة ، والدين ، والشعر ، وأيام العرب ، وعلوم العصر السائدة . كعلم الفلك والطب ، والعيافة ، والقيافة ، والفراسة. وغيرها مما يلائم كل عصر ، ويناسبه..

والثقافة عند اليونان القدماء تعني : « تهذيب القوى الروحية بحيث تتيح للمثقف القيام بأعمال فكرية راقية ، تعتبر مثالية ، ومستحبة في ذاتها .. »(٢) .

. وفي مفاهيم القرون الوسطى الاوربية ، كانت الثقافة تعني : السمو بالملكات المعنوية ، والروحية . وذلك باتقان معظم علوم العصر ، كالنحو والمنطق ، والبلاغة ، والحساب والهندسة ، وغيرها .. »(٣)

والثقافة تعني في عصرنا : « الفاعلية الذهنية ، والفكرية التي تعبر عن سلوكية اجتماعية رفيعة ، متطورة ، تتسم بالخبرات العلمية المثالية العالية ، في مجالات العلوم الانسانية ، والطبيعية ، كعلوم اللغة والأدب ، والشعر ، والدين ، والفلسفة والتاريخ ، والموسيقى ، والفلك والكيمياء ، وغيرها مما ينمي فاعلية العقل الانساني ، ويطور مفاهيم الانسان ، والحياة الانسانية . ويدفعها الى مزيد من التقدم القومي الانساني ، العلمي ، الحضاري .

بهذا المعنى : الثقافة افكار ، منطلقات متنوعة . ينميها الاستعداد وتغذيها الخبرات المتتالية لدى أفراد مميزين . يملكون الذكاء ، والموهبة، والفطنة . تتجمع بالاذهان من خلال المطالعات والممارسات الفكرية المتواصلة . يمكن اخراجها عندالحاجة بوسائل الاثارة الانسانيةالمعروفة. الثقافة مثل الماء في باطن الارض . فكما ان الماء تحتاج الى وسائل محددة لاخراجها ولكي تصبح ذات فائدة ، ونفع للناس ، كذا الثقافة في ذهن الانسان المثقف . تحتاج الى مؤثرات انسانية لتخرج الى الوجود ، وتحدد معالمها داخل المجتمعات الانسانية ..

الثقافة في الانسان المثقف ميل ، وقوة ، وقدرات عالية جدا على المطالعة ، وحب المعرفة واختزان المعلومات العامة . تبعثها المناسبات ، والحاجات حوارا ، احاديث طلية ـ مقالات وابحاث ، ودراسات في مختلف المجالات الفكرية العلمية . الثقافة دفق ذاتي ، احساسات شفافة استجابات لمؤثرات داخلية ذهنية ، نفسية ، وخارجية ، انسانية ، اجتماعية ، الثقافة انبثاق ، خلق ، ابداع ، تتجلى بالالفاظ ، والعبارات ، والمعاني ، والصور الفكرية الزاهية . صدى لعوامل الذهن الفاعلة التي تكون لدى المثقف في تهيج داخلي دائم . صور ذهنية صافية ، ذات قابلية عليا للتعبير . تيارات لعوامل النفس في تماسها مع العالم الخارجي . وقائع فكرية ايجابية ترسم وجودها بدلالات معرفية ، تتشكل بأطر من العبارات اللغوية ذات البلاغة ، والعمق الدلالي الصارم . الثقافة امتداد اجتماعي ، تتحول مع التطور في الحياة العلمية والاجتماعية ، وتقدم الزمن . الى ابداعات في جميع المجالات الفكرية ، والعلمية ، والفنية ..

الثقافة تستهدف جوهر الفرد ، وبنيانه النفسي المعرفي . تمنح كيانه النمو ، والتاصيل . وتضفي على علاقاته الاجتماعية داخل وطنه ، وخارجه سمات انسانية مميزة . الثقافة تسبغ على روح الفرد والجماعة فيضا من الصفاء ، والنقاء ، وتحول الافراد ، والجماعات الذين ينهلون من ثقافة واحدة ، رفيعة المستوى ، ولها جذور تاريخية عريقة ، من مظاهر التشتت . والتمزق الشخصي ، الفكري ، الى الاحساس الذاتي

المعمق بالانسجام والتعاطف . الثقافة ، توحد الفكر ، وتطور العقل ، وتهذب النزعات الانسانية . وتقود الافراد ، والجماعات الى الادراك الكلي المعمق لمعنى الوجود ، معنى الاشياء ، ومعنى الانتماء ..

الثقافة تدفع ابناء المجتمع الواحد . الامة الواحدة للشعور بانهم جزء من هذا المجتمع ، وهذه الامة ، من تاريخها ، واصالتها ، وفاعليتها الحضارية . انهم ابناء حميمون لها ، اداتها في التطور ، التحرر . انهم من ارومة فكرية ، وقومية واحدة ، تشدهم ، اليها اواصر وجدانية متدفقة ، ولهذا كانت ثقافة الفرد ، والجماعة ، والشعب جزء حيوي من ثقافة الامة على امتداد وجودها الانساني .

الثقافة لدى الفرد الناضج في المجتمع القومي المتماسك . تؤدي الى ادراكات كلية شاملة لمعنى الاصالة الوطنية ، والقومية ، والانسانية . وتوحيد السلوك داخل المجتمع الواحد . وتحدد المفاهيم ، والقيم ، وفق تطورات متتالية ، متجددة ، تترسخ في كيانه ، ووجدانه ، وتبعث في نفسه الطموح ..

اذا كانت الثقافة كل هذا . ولها هذه الفاملية على مستوى الامة الواحدة ، والقومية الواحدة . وإذا كانت هي الأساس في بناء القواعد الراسخة للمجتمعات الانسانية ، وبناء تأصلها في جميع الجوانب الحياتية الاجتماعية ، فمعنى هذا : أن على المجتمعات أن تعمل بكل قدراتها لاكتساب المزيد منها . ان تسعى بكل فاعلية ، وامكانية للوصول الى ارفع مستوياتها على الاطلاق ..

الثقافة العربية ــ لمحة تاريخية :

عندما ندرس الثقافة العربية منذ بداية تكونها ، والظروف التي مرت بها منذ العصر العربي الذي سبق الاسلام ، وعصر صدر الاسلام . المرحلة التي اصبح للامة العربية فيها لغة واحدة ، هي لهجة قريش التي نزل فيها القرآن الكريم . وانطلقت مع رسل ثقافتها من الدعاة ، والفاتحين العرب المسلمين الى جميع انحاء العالم المعروفة آنذاك ، وغدت لغة التكلم ، والتعلم ، والكتابة ، والثقافة لبلاد امتدت من الاندلس في اوربا

غربا ، الى حدود الصين شرقا . ومن أواسط افريقية جنوبا حتى بحر قزوين وحدود سيبيريا شمالا . فلسوف نجد ان هذه الثقافة أدت رسالتها القومية والدينية ذات الطابع الانساني المثالي بكل جدارة . وفاعلية لمدة زمنية كبيرة زادت عن خمسة قرون ، وشملت جميع المعارف الانسانية التي كانت معروفة في تلك العصور . كعلوم اللغة ، والشعر ، والأدب ، وعلوم الدين ، والفلسفة ، والطب ، والصيدلة ، وغيرها ، وغيرها ..

وبسيادة الثقافة العربية في تلك العصور . سادت لغتها — وترقت حضارتها . وتوسعت مجالات التفاهم الانساني الأممي فيها ، فغدت اللغة العربية من اعظم لغات العالم . وحضارتها الفكرية من أعظم الحضارات الفكرية في العالم ، واسمى ما مر على الوجود الانساني ..

ومع تجزئة الوطن العربي مهد الثقافة العربية بعد القرن الرابع الهجري بدأت هذه الثقافة بالتراجع عن مواقعها ، والتخلف ، حتى اذا دخل القرن السادس الهجري تتالت المآسي القومية ، والسياسية ، والفكرية على المستويين العربي والاسلامي. ومع حدة الاستبداد السلطوي في الولايات العربية المستقلة ، وتوجه الاتجاهات السياسية والعسكرية نحو التصارع ، والتناحر . والاقتتال الدموي الطائفي ، على مستوى الولاية والاقليم ، والمنطقة ، والمدينة . وتدمير بغداد عاصمة الثقافة العربية على أيدي المغول ، فقد انحسر مد الثقافة العربية ، وركدت ، وتخلفت لغتها بتخلف المتكلمين بها ، وعم الجهل بدل العلم في جميع انحاء الوطن العربي مما سهل الامر على العثمانيين . فاحتلوا ولايات الوطن العربي واحدة بعد الأخرى ، دون مقاومة تذكر . ومع دخول العثمانيين الى ولايات الوطن العربي . دخل الاهمال ، والاستبداد ، وسياسة التجهيل . وضاعت معالم الثقافة العربية ضياعا كاملا وبتأثير الحضارة الاوربية ، وانبعاث الحركات القومية في العالم . اخذ المثقفون العرب يطرحون أفكارهم الجديدة التي تبلورت خلال الاحقاب الاولى من القرن العشرين الى الصورة التي تؤكد على وحدة الامة العربية ، وبعث لغتها وثقافتها الى الوجود من جديد ..

وتوالت دعوات المثقفين العرب منذ القرن العشرين . يعلنونها في الصحف اليومية والمجلات الفكرية ، والعلمية ، والكتب المطبوعة . ومن على كافة المنابر ، سرا وعلانية .. ومن خلال الجمعيات الثقافية والعلمية التي لها طابع سياسي . يطالبون بخروج العثمانيين من المناطق العربيـة التي تحتلها في غرب آسيا ، وبالصراع المسلح ضد القوات العسكرية الأوربية التي احتلت المناطق العربية في شمال افريقية . مما أدى الى اعتقالات متتالية في صفوف المثقفين ، وتم اعدام أعداد كبيرة منهم على أعواد المشانق ، ورميا بالرصاص . واضطروا أن يعلنـوا الثورات في كل مكان من اقطار الوطن العربي . ولكن هذه الثورات ، خاصة ثورتهم ضد العثمانيين مع بداية الحرب العالمية ، أجهضتها قوى الاستعمار الاوربي ، التي احتلت معظم الولايات العربية التي كانت تحت الاحتلال العثماني . وهكذا مع انتهاء الحرب العالمية الأولى كانت الأقطار العربية ما عدا اليمن والعربية السعودية خاضعة خضوعا مطلقا للاحتلال الأوربي ، وسيطرته العسكرية الصارمة ..

وكان المحتلون الاوربيون ، ومن أجل استـمرار وجودهم العسكري الاستعماري ، يعملون بكل امكاناتهم لابقاء الأوضـاع الثقافية العربية متخلفة . لعلمهم لما للثقافة الوطنية والقومية من تأثير كبير على يقظة الشعوب ، وتحررها . وعملوا على ادخال لغاتهم بالقوة الى بعض الاقطار العربية في شمال افريقية ، يحاولون ان يجعلوها اللغة الام لهذه الاقطار . ويلغوا دور اللغة العربية ، وثقافتها التاريخية ، ولكي تسود ثقافتهم مع الزمن ، وتصبح هذه الاقطار في المستقبل اجزاء من اراضيهم فيما وراء البحار . ومارسوا من أجل تحقيق هـذه الأهداف كـل أنواع القمع ، والاضطهاد ، والابادة الجماعية ، لمجموعات كبيرة من المناضلين العرب ، وجلهم من المثقفين . لاعتقادهم أنهم أصلب المناضلين الثوريين ، وأكثرهم خطورة عليهم ، وعلى أهدافهم التي يطمحون اليها في استغلال اقطار الوطن العربي . واستطاع اليهود ، ومنظماتهم العالمية ، وتحت مظلة القوى العسكرية الاوربية ، أن يتمكنوا من استيطان أجزاء من فلسطين ، ويقيموا فوقها دولة بعد العام ١٩٤٨ . وكان هـدف المثقفين العـرب

النخبويين كشف كل شيء للجماهير العربية ، ودلها نحو الطرق التي يجب أن تسير عليها ، لتحقيق أهدافها القومية والوطنية ، والسياسية الاساسية « الوحدة » ..

لو اننا تتبعنا بالدراسة الأفراد العرب الذين حملوا السلاح ، وقادوا ثورات وطنية قومية ضد المحتلين الأجانب ، ومنذ الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، وعلى امتداد مرحلة النضال العربي ، والوصول الى الاستقلالات الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية لوجدنا أن غالبيتهم من المثقفين العرب ، أمثال عبد القادر الجزائري ، وعبد الكريم الخطابي ، واحمد عرابي ، والشريف حسين ، ويوسف العظمة ، وعمر المختار ، وغيرهم ، وغيرهم . لأن المثقفين النخبويين ، هم الصق أفراد الأمة بقضايا النضال الوطني ، والقومي والديني على مدى التاريخ الانساني ..

وبما أن التربية ، والعلم ، والتعلم ، هم البداية لظهور الثقافة ، والمثقفين في الأمة الواحدة . فان انتشار أساليب التربية الحديثة ، والعلم ، والتعلم في أقطار الوطن العربي . وسيادة اللغة العربية الفصحى على مجتمعاتها. قد أبرزت مجموعات كبيرة من المثقفين العرب الذين تميزوا بنزعاتهم القومية المعقلنة . في كل قطر من الاقطار العربية ، سواء قبل الاستقلالات الوطنية ، او بعدها . اخذوا على عواتقهم طرح الافكار القومية بكل موضوعيتها ، وصفائها ، وأصالتها . وإذاعتها بين عامة الجماهير العربية ، وبكل الوسائل المتاحة لهم . والتي تحضر ، وتهيء لقيام نظرية الوحدة العربية التي تتلخص بشعار أساسي هو « أن لا حياة كريمة للعرب بدون وحدتهم .. » ..

يتبين لنا من خلال استطلاعاتنا لتاريخ الثقافة العربية . وخاصة في هذا القرن ، ان المناضلين الحقيقيين في المنتصف الاول من هذا القرن هم المثقفون العرب النخبويون . وهم الذين قدموا أنفسهم ضحايا في سبيل القضية الأساسية للأمة العربية . الوحدة ، ونظرية الوحدة . وهم الذين هيأوا الجماهير العربية في نهاية المنتصف الأول لهذا القرن بأن تهب هبة واحدة . وتقاتل المحتلين الاجانب في كافة أقطار الوطن العربي ، للوصول

الى الاستقلالات الوطنية .. وتحديد أهدافها النظرية التي تؤكد بأن الاستقلالات القطرية ليست الا مقدمة منطقية لوحدة الأمة العربية وحريتها ..

هذه المقدمة المنطقية هي التي هيأت الظروف لقيام وحدة سورية ، ومصر عام ١٩٥٨ والتي لم تستمر . لأسباب كثيرة ، سياسية ، وقومية ، واجتماعية . ومنها غياب النخبة من المثقفين العرب عن قيادتها الفكرية . ولاسباب عديدة لا مجال لبحثها في هذه الدراسة الموجزة .. وكان انفصال هذه الوحدة عام ١٩٦١ أكبر نكسة تحل بجماهير الأمة العربية عامة ، وبالمثقفين العرب النخبويين خاصة في هذا القرن ..

بعد الستينات من هذا القرن . أخذ دور المثقفين العرب النخبويين يتلاشى . وتتحدد تأثيراتهم الفكرية العامة على الجماهير العربية . بسبب الأنظمة القطرية المتنوعة بسياساتها ، وثقافاتها الخاصة . مما أوصل القضايا القومية الى ما هي عليه الآن ، من التشتت ، والانقسام الايديولوجي القومي ، والضياع ، ولعل أهم المآسي الثقافية العربية في عصرنا ، هي المأساة التي المت بلبنان بعد العام ١٩٧٥ . لأن بيروت التي كانت عاصمة الثقافة العربية ، ومركز اشعاعها الكبير ، يغذي أقطار الوطن العربي كلها . بما تخرجه دور نشرها من مؤلفات ثقافية قومية ، وفكرية . وكان كل مثقف عربي يجد فيها ناشرا لكتابه . أو مجلة فكرية ثقافية لمقالاته ، ودراساته التي يعلن فيها آراءه بكل حرية . وبذا تراجعت الثقافة العربية تراجعا محزنا في كل أقطار الوطن العربي . وخاصة في مركز القلب من الوطن العربي « مصر » بعد زيارة السادات للقدس وسياسة المصالحة التي اتبعها مع اسرائيل ..

هذه الانتكاسات المتوالية للثقافة العربية . والمثقفين العرب النخبويين . ادت الى هجرات اضطرارية ، وقسرية لأعداد لا تحصى من المثقفين العرب النخبويين الى خارج الوطن العربي . بسبب انعدام الديمقراطية في أقطارهم . وتحولت الثقافة العربية الى ثقافات قطرية يمارسها أشباه المثقفين ..

ـ الثقافة . واللغة ..

جاء في كتاب لسان العرب لابن منظور عن الثقافة ما يلي :

ـ « ثقف الشيء ثقفا ، وثقافا ، وثقوفة . ورجل ثقف ، وثقف ، وثقف : حاذق فهم . وتبعوه . فقالوا عنه : « ثقف لقف » و « اللقف » هو السريع الفهم لما يرمي اليه من علوم اللسان ـ وسريع الاخذ لما يرمى اليه باليد . وهو الحاذق بصناعته . والثقف ، هو السريع لما يلقى اليه بالتعلم ؛ وثقفت الشيء : حذقته .. »(٢)

هذه الكلمة « ثقف » الثقافة . تطورت في استخداماتها اللغوية على مدى القرون . ووصلت في عصرنا الى حدود المعنى الشامل الذي يحيط بجميع جوانب العلوم المعاصرة . والمثقف هو الانسان المتفرد ، الذكي ، اللبق ، المتحدث ، المحاور الذي لديه القدرة على الاهتمام بما يقراه ، واستيعاب فوائد ما فيه .. والمثقف بهذا المعنى . يختلف عن العالم المتخصص ، ويتفوق عليه . فالعالم هو الآخر مثقف ، ولكن باختصاصه ومادته العلمية . فهناك الاختصاصي بالأدب ، والاختصاصي بالتاريخ ، أو الفيزياء ، والطب ، والفلسفة ، والرياضيات وغيرها .. اما المثقف ، فهو اختصاصي بكل ما يقراه ، ويستوعبه ، يتحدث ، ويحاور ، ويناقش فيه ، ويكتب عنه ، كالأدب ، والشعر ، والفلسفة ، والموسيقى ، والفنون الأخرى ، وغيرها . وغيرها .

والمثقف . لا يعد مثقفا . وذا فاعلية على مجتمعه ما لم يكن ملما الماما واسعا بلغته ، وعلومها ، وأساليب استخداماتها ، لأن الأساس الثقافي لكل مثقف هو اللغة ..

أجمع الباحثون ، والمفكرون في كل عصر ، وكل أمة . على ان الثقافة في أمة من الامم ، أو مجتمع من المجتمعات ، مرتبطة ارتباطا عضويا باللغة التي تتكلم الأمة أو المجتمع بها . فتتطور بتطورها ، وتتخلف بتخلفها . وهذه سمات ثقافتنا العربية في مختلف عصورها . وسمات كل ثقافة انسانية ، من ثقافات التاريخ ، فلولا التطورات الحاسمة التي حدثت للغات الاوربية في عصور النهضة لما تطورت ثقافتها . واخذت ابعادها

في تطوير الانسان ، والمجتمع في القرون التالية ، ووصلت الى ما وصلت اليه فيما بعد ..

والعرب في بدايات عصورهم الحضارية كامة ، ومنذ تطورهم اللغوي في نهاية العصر العربي ، الذي سبق الاسلام ، وعصر القرآن الكريم في عصر صدر الاسلام . وصلت لغتهم الى ارقى مستويات تطورها ، بمبانيها ، ومعاني مفرداتها ، وعلومها . حتى اذا عبرت الأحقاب ودخلت عصرها الذهبي في بداية القرن الثاني الهجري . واخذت علومها بالاتساع، والتواضع . وازدادت أبعاد تطورها ابعادا جديدة ، بعد نقل الكثير من علوم ، وفلسفة وثقافات الامم الأخرى اليها ، فبلغت الاوج في بداية القرن الثالث الهجري ، وقدرت أن تستوعب جميع علوم عصرها ، ووصلت الى ابعد مدى في زمن لا يزيد عن مئتي عام . وهذا زمن يسير لا يقاس بعمر الحضارات اللغوية الانسانية . ووصلت الى ان تكون لغة مجتمع انساني كبير . متعدد الأجناس ، والقوميات ، في ثلاث قارات . وغدت ثقافتها متاصلة أكثر من أية ثقافة اخرى عبرت تاريخ الحضارات الانسانية ..

اللغة اداة هامة من ادوات الناطقين بها الحضارية ، اذا ترقت علومها وترقى الناطقون بها ، ترقت ثقافتها ، ومثقفوها ، الكلمات في اللغة الراقية تغدو ذات مرام ، واهداف عريقة . الجمل فيها تصبح معبرة ، نابضة بالحيوية ، والفاعلية . المعاني تصبح مشرقة وضيئة مزدهية ، يملك كتابها ، ومثقفوها نواصي الألفاظ ، ورقاب العبارات ، ومتون المعاني ، تتضوع بالعطاء النفسي مع عواطفهم ، ويفوح منها شذى ما تزخر به اذهانهم ، تتحول بنثرها . وشعرها ، وعطاءاتها الى صور ابداعية رائعة ، تبلغ أعلى مستويات الرفعة ، والسمو ، والشفافية ، والجمال الفني ، والتأصل . يدرك المتكلمون فيها ، كيف يستخدمون صيغها كل فيما يخصه . هذه للنثر ، وتلك للشعر ، وهذه للحكمة ، والعظة ، والامثال ، وتلك لحكايات الأطفال. هذه للاستخدامات العلمية. وتلك للاستخدامات الفنية . هذه لتعبر عن نوازع النفس . وأغوار الوجدان في الرواية . وتلك لترسم علاقة الانسان بأخيه الانسان. والاب

بابنه ، والزوج بزوجته ، هذه لعبارات الدماثة ، واللطف ، والغزل ، والرقة . وتلك لعبارات القسوة ، والجلافة ، هذه لعبارات المجاملة ، والمحاورة الهادئة ، وتلك لعبارات المنابذة والطرافة .. في اللغة الراقية . يستطيع المثقف الفنان أن يرسم كل شيء بدقة متناهية ، ويستطيع الاديب المبدع ان يجعل من كل كلمة في اللغة غصنا مورقا مزهرا بروعة المعنى . ويستطيع الشاعر العبقري أن يبعث الايحاء من كل كلمة من كلماته ، يخرجها بدفق ، وعذوبة . لتدخل الى اذهان المتلقين بذات الدفق ، والعذوبة ..

قال ابو الطيب المتنبي :

ويوم وصلناه بليل كأنما على افقه من برقه حلل حمر
وليل وصلناه بيوم كأنما على متنه من دجنه حلل خضر(٤)

الشاعر يرسم في هذين البيتين صورا فنية مبدعة ، يصف فيها سيره الى الممدوح ، وكيف وصل يومه بليله . والسماء وهي تبرق دون انقطاع، وكأنها ترتدي حللاً حمراً، بلون الاشعة التي يبعثها البرق. وكذلك يفعل الشاعر في البيت الثاني ، يصل ليله بنهاره دون توقف ، وكأن النهار لسواد غيمه يرتدي حللا خضراء اي سوداء ، لان العرب تغلب السواد على اللون الأخضر . فقالوا عن غابات النخيل الخضراء في جنوب العراق ، سواد العراق .. فكما نرى ، ونتذوق ، الشاعر يبعث صوره الشعرية بايحاءات ذات دلالات نفسية عميقة . جاء بها بألفاظ محددة ، يوم ، ليل ، وصلناه ، افقه ، برقه ، دجنه ، حلل حمر ، حلل خضر ، ربطها بعدد من حروف الجر .. كل كلمة في هذين البيتين ، تنبض بالدفق ، الذاتي . وتزخر بالمعنى . وتبعث بمضامينها الدلالية الى نفوس المتلقين ، فيحسون بهذه المتع الفريدة ..

هذا الفهم لاستخدامات مفردات اللغة . هو ارفع انواع الثقافة . واكثر دلالة على ارتباط اللغة بثقافتها ، ومثقفيها ارتباطا عضويا كما قلنا من قبل ..

ومثل هذا كثير في لغتنا ، ولدى مثقفينا . نجده لدى عباقرة الكلمة العربية في كل عصر . قال الامام علي . يصف صاحب السلطان :

ـ « صاحب السلطان كراكب الأسد ، يغبط بمكانه . وهو ادرى بنفسه .. »(٥)

لقد اختصر الامام علي عليه السلام بهذه الرؤية البلاغية . وبهذا الاختصار المفهم الذي يحتاج شرحه الى عشرات الصفحات . في النواحي السياسية والاجتماعية بثلاث جمل قصيرة ، معبرة .

ومثل هذا قوله يصف اللسان بهذه الجمل القصيرة المشرقة :

ـ « اللسان بضعة من الانسان ، فلا يسعده القول اذا امتنع ، ولا يمهله النطق اذا اتسع . »(٦)

وسئل عبد الرحمن الكواكبي من مفكري ، ومناضلي عصر النهضة . فقيل له : صف لنا الاستبداد . وكان اكثر ما يمقت الاستبداد والمستبدين : فقال :

ـ « لو كان الاستبداد رجلا ، وانتسب لقال ، أنا الشر . وابي الظلم ، وامي الاساءة واخي الغدر ، واختي المسكنة ، وعمي الضيم ، وخالي الذل، وابني الفقر، وابنتي الحاجة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب .. »

لهذا قال علماء اللغة العربية عن لغتهم ، ان عبقريتها تظهر في استخدامات الفاظها . وبلاغتها تبرز في الاختصار المفيم ، او الاطناب المفخم ، وما يصل بها الى هذين المستويين سوى المثقفين بها ثقافة رفيعة ..

ولهذا قسم علماء اللغة المعاني في استخدامات اللغة العربية . لأربعة اضرب ، الاول : ما حسن لفظه ، وجاد معناه ، وهو ارق أنواع هذه الاضرب . والثاني : ما حسن لفظه فإن نحن ناقشناه ، لم نجد فائدة لمعناه . وهذا ما يطلقون عليه « زخرف القول » . والثالث : ما جاد معناه،

وقصرت ألفاظه عنه . . وهذا الضرب نجده لدى علماء اللغة ، والفلاسفة، والحكماء ، وأمثالهم . والرابع : ما تأخر معناه ، وتأخر لفظه(٧) . . .

اللغة بهذا المعنى لا تنفصل عن ثقافتها ، ومثقفيها ، تتقدم بها ، وبهم . وتتخلف بها ، وبهم . اللغة ، والثقافة هما التراث ، الوجود ، الأمة . فاعليتها ، وقوتها وحضارتها ، ووحدتها . .

ـ المهمات المطلوبة من المثقفين العرب النخبويين في هذه المرحلة . .

عندما نستطلع واقع المثقفين العرب النخبويين في هذه المرحلة من الزمن . في أقطار الوطن العربي ، وخارجها ممن يعملون في ديار الغربة ، لمعرفة مدى فاعلياتهم ، وتأثيراتهم على مجتمعاتهم القطرية . يتبين لنا الأوضاع المحزنة التي يعيشونها ، ويعانون منها ، إن كان من حيث واقعهم الحياتي الاجتماعي الانساني ، أم كان من حيث قدراتهم المالية على العطاء . ويتأكد لنا أن تأثيراتهم على مجتمعاتهم هامشية ، محدودة ، لا تقاس بامكاناتهم ، ولا توازي الواقع الثقافي الذي يجب ان تكون عليه في هذه المرحلة من تاريخ الأمة العربية . وهذه الظاهرة تعود الى أسباب عديدة ، لعل أبرزها ، وأهمها أمران اثنان هما :

الأول : هو أن غالبية الأنظمة القطرية القائمة ، لا ترغب بهم ، ولا بثقافتهم ، ولا بأفكارهم ، ومنطلقاتهم القومية الثقافية ، التي تهدف الى تكوين بنية شخصية ذاتية متكاملة للانسان العربي أينما كان ، ويرفضون التعامل مع الثقافات القطرية ، وأشباه المثقفين في هذه الأقطار الذين يسيطرون على المؤسسات الثقافية ويلتزمون مع السياسات القطرية التي تهدف أن تطرح ثقافتها التمجيدية بالدرجة الأولى . أي ثقافة التصفيق ، والتهريج ، والاعلان . .

المثقفون القطريون الذين يديرون المؤسسات الثقافية القطرية بطرق انتهازية بحتة . واضافة الى اعمالهم التحريفية للثقافة العربية ، يضعون الأطواق حول المثقفين العرب النخبويين ، ويبعدونهم عن الحياة الثقافية والفكرية داخل أقطارهم . وفي حالات كثيرة يقومون بتهجين أفكارهم القومية التي يطرحونها في المجلات الفكرية العربية التي تصدر في بعض

الاقطار العربية ؛ او خارج حدود الوطن العربي . ويشوهون أبعادها ، واغراضها بأساليبهم الفوغائية التي يعرفها كل مثقف عربي نخبوي في هذه المرحلة من الزمن ..

الثاني : هو ان غالبية المثقفين العرب النخبويين ، لم يقدموا على محاولات جادة ، من اجل الخروج من هذه الأطر . ويكونوا الأدوات الثقافية الفاعلة في حيـــاة الانسان العربي ، الفكرية ، والاجتماعية ، والقوميـــة ..

وهكذا ، لو انه وجدت جهات ثقافية قومية اصيلة داخل واحد أو اكثر من الأقطـــار العربية لما اتيحت لها الفـــرص كي تطرح ثقافتها ، وأفكارها ، ورؤيتها للأوضـاع العربية القائمة من على المنابر الثقافيـــة القطرية ، والمؤسسات الثقافية الرسمية ، من دور النشر ، او المجلات الفكرية ، وغيرها . ولهذا ، فان المثقفين العرب النخبويين يعيشون في الظل داخــل أقطارهم . وتحت رحمة مدعي الثقافـــة الذين يقودون الحركات الثقافية القطرية « الرسمية » بكل جوانبها ، وبدقة متناهية .. المسؤولون عن المؤسسات الثقافية القطرية ، يخصصون الجزء الاكبر من امكاناتهم للحد من أية أفكار ثقافية لها طابع قومي أصيل ، من أية جهة جاءت .. حتى ولو كانت من تراث العرب الثقافي ..

لهذه الأسباب « وغيرها » يفقد المثقفون العرب النخبويون حماستهم مع الزمن ، وينزوون داخل ذواتهم . ويتهمشـون ، ولو أن بعضهـم ، حاول الكتابة أو النشر في أمكنة أخرى ، « خارجيـــة » . فان كتاباتهم تنزع صفحاتها من المجلات الفكرية التي ينشرون بهـــا . بلا شفقة او رحمة ، وبمقصات الجناة من اشباه المثقفين في بعض الأقطار العربية ، وفي حالات كثيرة ، لاتسمح السلطات القطرية الثقافية بدخول هذه المجلات ذات الطابع الثقافي القومي الى اقطارهم ، وهذا الفعل ، يجعل تأثيرات المثقفين العرب النخبويين على مجتمعاتهم محدودة ، او بالاحرى معدومة، وبدرجة مؤيسة ، مخيفة ، تؤثر على الوجود القومي العربي في الحاضر ، والمستقبل ، وتؤدي به الى فقدان هويته الثقافية الوجدانية الاصولية ..

ومن المؤسف ان الاجيال العربية التي تعيش تحت مظلة الثقافات القطرية ، تتآلف معها ، وتتجمد ذهنيتها على منطلقاتها ، وأهدافها . مما تجعل تأزمات المثقفين العرب ، وكل عربي قومي تزداد ، فيشعرون بمزيد من الحزن ، وهم يرون الأجيال العربية ، وفي عصر زهو القوميات ، والوحدات الانسانية ، يعيشون تحت تأثير عمليات تحويل ثقافية انحرافية حادة ..

مهمات الثقافة ، والمثقفين العرب النخبويين في هذه المرحلة من حياة الجماهير العربية .. للثقافة العربية ، والمثقفين العرب النخبويين مهمات اساسية في هذا العصر ــ وفي كل عصر ــ من حياة الامة العربية ، وجماهيرها . واهم هذه المهمات على الاطلاق ، ان تبنى الثقافة ذات الطابع القومي الشمولي الموضوعي على أسس سليمة في كل جانب ومجال، من جوانب ، ومجالات حياتها الفكرية . وحتى يتم هذا ، يعمد المثقفون العرب النخبويون وفي كل مكان من وجودهم ان كان داخل الاقطار العربية المحكومة بالثقافات القطرية ، أو خارجها ، وفي كل انتاجاتهم الثقافية « الفكرية ــ الفلسفية ــ اللغوية الخ ــ » على التركيز وفي اطر الظروف المتاحة على الابعاد الاساسية التي تستهدف خلق المجتمع العربي الجديد ، الذي يبتعد بكل مقوماته النفسية ، والفكرية ، والاجتماعية عن الانحرافات القومية ، وعن اتجاهات الثقافات القطرية التي تروج للنزعات الاقليمية ، والدينية ، والطائفية ، وتدفع الى مزيد من التراجع في مجالات الفكر القومي ، وتصعد اعمالها في جميع الاتجاهات ، وليس في الاتجاه الثقافي وحده ، ولتحقيق اهداف سياسية ، اجتماعية خاصة بالفئات الحاكمة ، وعلى حساب الامة العربية ، والمستقبل العربي ، بأن تدفع جماهيرها للمزيد من التقوقع حول نفسها ، تغلق اذهانها أمام أي تطور مصيري حضاري للأمة العربية ..

ومن هذه المهمات الحادة الحاسمة ايضا ، وفي هذه المرحلة بالذات رفض الحلول التي ينادي بها اشباه المثقفين في بعض الاقطار العربية للمصالحة مع ثقافاتهم ، واتجاهاتهم الثقافية ، والمصالحة مع اعداء الامة العربية في الداخل « القطرية ــ الطائفية ــ الاستبدادية » والسكوت على

التخلف الفكري ، والاجتماعي العربي .. وغير هذا .. وفي الخارج المصالحة مع أعداء الامة العربية التاريخيين « الامبريالية ـ والصهيونية » وحلفائهما ، والذين يعملون منذ قرون ، وبكل امكاناتهم ، وطاقاتهم الآن لتزداد الاوضاع القطرية تفاقما . وتترسخ بكل اتجاهاتها ، وأنظمتها ، ودفعها لمزيد من التراجع في مجالات الديمقراطية ، والحريات العامة ، و تغذية العوامل السياسية التي تؤدي الى مزيد من التراجع أيضا عن المنطلقات القومية ، و هذا سوف يؤدي الى مزيد من المهاترات الاقليمية العربية ، والتعصبات القطرية الطائفية والدينية ، والمذهبية ، والاقتتال الطائفي الذي يؤدي الى مزيد من التمزق النفساني ، الانساني الداخلي في البنية الجماهيرية للقطر الواحد ، وهذا كله سوف يمزق كيان الانسان العربي نفسه ، ويبعده عن واقعه ، وذاته ، ويبعثر افكاره ، وقناعاته ، ويصل به الى المتاهات ، والضياع ..

الاعداء الخارجيون يسخرون كل ما يملكون من قوى ووسائل اعلامية متطورة لتشويه الثقافة العربية التاريخية والمعاصرة للأمة العربية ، ولتفريغها من الدوافع الحيوية والانسانية ، والحضارية ، وليظهروا العرب أمام المجتمعات العالمية بأبشع صورة ..

الثقافة القومية ، يجب أن تتوجه بالدرجة القطعية الحاسمة الى جماهير الامة العربية كلها ، وليس الى فئة محددة من الفئات الاجتماعية العربية كما تفعل القطرية ، والثقافات القطرية ، ويجب أن تتميز بالسمة، والشمول ، حتى تتمثل الجماهير العربيةالفقيرة أبعاد منطلقاتها ، وأهدافها ، لكي تجد نفسها فيها ، تكون شخصيتها القومية ، وقوامها الانساني الذي ينبع من ذوات متأصلة في سمو المشاعر والاحساسات ..

الثقافة التي تنبعث من وجدانات المثقفين العرب النخبويين هي القادرة وحدها على عمليات التحويل الاجتماعي الكياني الجذري للتجمعات القطرية ، الجماهيرية العربية « القطرية » في عصرنا ، تحتاج الى كل شيء، مادي حياتي ، من الغذاء والكساء ، والسكن ، والاطمئنان على الوجود في المستقبل ، والى كل شيء معنوي ، كالشعور بالامان ، والاطمئنان ، وإبعاد

الخوف عن نفوسها ، بمنحها مزيدا من الحرية .. وغير هذا .. لهذا تحتاج للثقافة القومية .. وبشكل أهم من كل شيء . فالتغيير القومي ، والاجتماعي ، والمادي ، والانساني الشامل ، لا يأتي بدون تغيير ثقافي جذري ، متأصل ، وشامل . الثقافة القومية للمجتمعات القطرية هي الاساس في تغيير الافكار ، والمنطلقات ، وما في النفوس من عادات ، وقيم ، ومثل ، والقضاء على كل الامراض الاجتماعية المستوطنة قبل قرون في عقل الانسان العربي .

فالثقافة الاصيلة تقضي على الجهل ، والامية ، والحقد ، والركود الوجداني القومي الاجتماعي ، والنزعات القطرية المتطرفة ، والاقليمية ، والطائفية ، والتخلف في مجالات الحياة الاقتصادية والعلمية ، والسياسية ، والعسكرية ، والجمود الذهني ، والتقوقع الذاتي ، وتفتح المجال الواسع امام الجماهير العربية مجتمعة للخروج من طوق الاسار القطري . وتنطلق لبناء وحدتها القومية بحرية مطلقة ..

لهذا يجب على المثقفين العرب النخبويين أن يضعوا كل امكاناتهم وقدراتهم . من اجل قضية امتهم المركزية « الوحدة » ، وان يعملوا بكل ما أوتوا من قوة على تطوير ثقافة جماهير امتهم القومية المعاصرة،أن يكونوا الاداة الفاعلة في بناء الثقافة العربية ، ومستقبل اجيال الامة العربية ، وأن يجابهوا الاستشهاد للوصول الى هذا الهدف ..

ولعل الايمان المطلق بالعمل العربي الوحدوي ، هو المقياس الاساسي لكل مثقف عربي في هذه المرحلة من حياة الامة العربية ، هو الهدف الاول، والاوحد الذي تنصب جميع الجهود فيه ، وتتوجه اليه ..

المثقفون العرب النخبويون ، يدركون اكثر من اية مجموعة عربية اخرى مدى تأثير الثقافة الاصيلة ، والمتأصلة على جماهير الامة العربية ، على شرط أن يستطيعوا ايصالها الى هذه الجماهير ، لأن الثقافة كانت على امتداد التاريخ الانساني ، الاكثر اهمية في قيادة المجتمعات الانسانية، وتحويل اتجاهاتها ، وصياغة أفكارها ، ومركباتها الشخصية ، والتحكم بردود أفعالها تجاه القضايا الهامة التي تعترضها ، فالثقافة غايتها خلق

وجدانات قومية وانسانية ، داخل مجتمع امة من الامم ، بمعنى أدق للفهم ، واوضح له ، ان الثقافة بامكانها أن تصيغ الفرد الانساني ، وتشكل له فكره ، وقناعاته . وتوسع له مداركه بأساليبها المثالية ، وطرقها ، وطرحها بكل الوسائل المتاحة ، في الصحف ، والمجلات الفكرية، والاذاعات المسموعة ، والمرئية . وكتب الأدب ، والشعر ، والمقالة ، والقصة ، والرواية ، والحكاية ، والكتب العلمية الاخرى ، وغيرها ، وهذا لن يتم ما لم يكن للمثقفين العرب النخبويين السيطرة على كل الهيآت الرسمية ، وغير الرسمية التي تشرف على المؤسسات الثقافية في كل قطر عربي . وهذا لن يتم في ظل الانظمة القطرية السياسية القائمة ، لأن المثقفين العرب النخبويين وحدهم الذين يمكن لهم توجيه الثقافة العربية لتأخذ مسارها فوق أرض الواقع العربي ، ولكي تتحول الى ادوات فاعلة ، تدفع التواصل القومي نحو مساره الصحيح ، ولا شك بأن هناك قابليات مميزة ، وحادة في ذات الوقت لدى الجماهير العربية ، لتقبل الثقافة القومية بكل صفائها ، ونقائها ، بدليل أن الكتب ، والمجلات الفكرية والثقافية ، والعلمية ذات الطابع القومي هي أكثر رواجا في أسواق الاقطار العربية التي تفتح أبوابها اليها ، وبدرجة ملحوظة من الكتب والمجلات الفكرية القطرية ذاتها ، وهذا يؤكد لنا أمرين هامين :

الأول : قابلية القراء العرب ، والجماهير العربية في المجتمعات القطرية على التعاطف الجاد مع الثقافة القومية بكل أبعادها ..

الثاني : فاعلية الكتب ، والمجلات الفكرية والثقافية ذات الطابع القومي التي تدخل الى بعض الاقطار العربية ، ومدى تأثيرها على ثقافة جماهيرها ، ومدى فاعلية المثقفين العرب النخبويين الذين يؤلفون هذه الكتب ، ويصدرون هذه المجلات الفكرية ، والثقافية على الجماهير العربية في هذه الاقطار ..

هذا الفعل الثقافي القومي ، وان لم يكن له هذا الاتساع الكبير في عصرنا . ولم يصل الى المستوى الذي نرجوه له . يدل دلالة قاطعة ما للثقافة القومية من آثار على بنية الاجيال العربية الفكرية .. مما يؤكد

لنا ان على النخبة من المثقفين القوميين العرب ، أن يفكروا جديا بمثل هذه المهمات الجوهرية ، ولكي يحولوا أفكارهم ومنطلقاتهم الثقافية الى ادوات تلاقح ، تؤدي وظائفها في بنيات الجماهير العربية ، ولكي يصلوا بالثقافة القومية الى أهدافها ، وأهدافهـا خلق جيـل عربي متماسك فكريـا ، ونضاليا ، وقوميا ، وانسانيا ، وحضاريا ، يمكن الاعتماد عليه في بناء وحدة امة العرب في المستقبل . والدفاع عنها أمام أعدائها التاريخيين في هذا الزمن ، الامبريالية ، والصهيونية ..

المثقفـون العرب النخبويون يعملون في هـذه المرحلة الخطرة من تاريخ امتنا ، باجتهادات فردية ، شخصية ، او في اطار تجمعات محددة، وهذا يقلل من قدراتهم ، وفاعلياتهم ، وعطاءاتهم ، ولا يتمكنون من ايصال افكارهم ومنطلقاتهم الثقافية الى الجماهير العربية الفقيرة داخل أقطارها، هم يقدمون كل ما يملكون من ثقافة ، وفكر الى جماهير أمتهم ، وبكل الوسائل ، والوسائط المتاحة ، ومع كل هذا فان امكاناتهم في العطـاء الثقافي اكثر بكثير لو انهم وضعوا انفسهم في المسار القومي الصحيح ، ومسارهم الصحيح أن يشكلوا تجمعا قوميا ثقافيا خاصا بهم ، ينطلقون به من اسس وقواعد محددة من المبادىء والاهداف . وخطط العمـل المرحليـة ، والمستقبلية . ونظاما داخليـا وشروطا صارمة محـددة للانتسـاب . والايمان بقضية « وحدة الثقافة العربية ، اصل ثابت لوحدة الأمة العربية » . وهي الأسـاس لحركة الجماهير العربية ، ونضالها ، من أجل الوصول الى الاهداف العليا « الوحدة العربية الجزئية ، او النواة ، او الوحدة الكليـة .. » وتكـون لهم صحفهم ، ومجلاتهم الفكـرية ، والثقافية ، والأدبية ، والتاريخية . ومنابرهم الخاصة لطرح أفكارهم ، وثقافتهم ، ومنطلقاتهم في كل قطر عربي لو امكن . لكي يستطيعوا من خلالها أن يجعلوا من الثقافة العربية القومية الاصيلة نورا يهدي الجماهير العربية الى أهدافها ، وطريق خلاصها القومي الوحدوي ، وسلاحا بيدها تحمي نفسها ومصيرها المستقبلي بها ، تحت شعارات واضحة تصوغها ، وتصقلها الديمقراطيـة مع مرور الزمن . وبذا يدفع المثقفون العـرب

النخبويون الأمة العربية نحو أهدافها العليا ، ويضعون المداميك الأولى الراسخة ، لحرية الامة العربية ووحدتها ..

* * *

ليس أمام المثقفين العــرب النخبويين ، والمنظمات ، والاتجاهــات القومية الاخرى من خيار في هذه المرحلة من التاريخ ، ليس أمامهم غــير هذا الطريق يسيرون عليه بثقة مطلقة نحو أهداف أمتهم المصيرية .

لن يكون للأمة العربية في حالتها الراهنة وجود انساني دون تحقيق هذه الاهداف ، لن تدخل عصر الحضارة المستقبلي وهي مجزأة ، لن تدخله بدون الوحدة والحرية ، لن يكون لاي فرد عربي مهما كان وضعه الاجتماعي، والسياسي وفي أي قطر عربي كان ، كيان ، وفاعلية ، وشعور بالذات القومية ، والانسانية دون وحدة أمته .. وحريته ..

رؤية واضحة لكل من يرى النور ، رؤية واضحة أمام كل من يريدون ان يهتدوا ، أن يخلعوا عن أبدانهم أردية الخوف التي البـستهم اياهــا القطريات العربية منذ زمن طويل . ويرتدوا ألبسة الجرأة القومية ، والديمقراطية ، ويتقدموا نحو أهدافهم ..

.. «اذا أراد الله بقوم ذلاً ، ابتلاهم بالجدل ، ومنعهم عن العمل» ..

وقل اعملوا ..

* * *

الهوامش :

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي ـ مصر ـ القاهرة ج٤ ص ١١٢ .

(٢) المعجم الوسيط . عبد الله العلايلي ـ بيروت ـ لبنان ج١ ص ٦٩٠ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ـ دار المعارف ـ مصر ، ص ٤٩٢ .

(٤) ديوان المتنبي ـ مرجع سابق ـ ج٢ ـ ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٥) نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده ، مصر ـ القاهرة ، ص ٢١٤ .

(٦) مرجع سابق ، ص ٢٢٦ .

(٧) على سبيل المثال ، انظر كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٨ وما بعدها .

* * *